الشاعر «بتوفي»

كان شهاباً في سماء الأدب ارتفع من الحضيض الى الأوج ثم اختفى في الظلام

للحاج عبد الكريم جرمانوس
الاستاذ بجامعة بودابست

الشعب المنغاري من أصل فنلندي هاجر من شمال أوربا عن طريق جبال الأورال الى جنوب أوربا الشرقي من نحو الف سنة او اكثر فاتصل في خلال هجرته بالشعوب التركية ، فاتسع نطاق علومه وثقافته بهذا الاتصال واللغة المنغارية تنطوي في غير ناحية منها على آثاره ولا سيما تلك التعبيرات التي أضافت ثروة نفيسة الى المعجم المنغاري . ثم ان السلالة المنغارية وهي أصلاً شعب صيد وتنحدر تحولت الى شعب حرب وفروسية فنبت بترية الجياد كالترك . فلما وصل المنغاريون في أواخر القرن العاشر الى سهول الدانوب كان ظهورهم فيها شبيهاً بظهور « الهون » و« الترك » . ومؤرخو البزنطيين يشيرون اليهم هذه الاشارة . هناك زاد اختلاطهم وامتزاجهم بالشعوب الأخرى كالصقالبة والجرمانيين والايطاليين وهذا الاندماج الشعبي والثقافي اتضح في الشعب المنغاري كفاءات فلما تجدها في غيرهم ، إذ جمعت — على حدّ قول الشاعر الاميركي هوتير — « قوة اوربا وتوهج النبوغة الآسيوية »

كانت الأسرة الأولى من ملوك المنغاريين الصليبيين أسرة أرباد تحوّل هؤلاء الملوك شعبهم الى اعتناق النصرانية فاتخذت الثقافة الأوربية الى قلوب هذه القبائل الحربية واذهانها طريقاً ممهداً . وقام على أساس من خصب التربة المنغارية وخلاه وازدهار ناضا ساكان يقابلها في فرنسا في ذلك العصر ، وانتقل الحكم في القرن الرابع عشر الى أسر أجنبية فتوثقت الصلة بين المنغاريين وشعوب الغرب ، ومن النادر ان نجد مثلاً اعصر النهضة والاحياء أمثل وأشرف من الملك المنغاري ماتياس فقد كانت خزائن كتبه فخر المتعلمين وكنزاً للثقافة العامة وكانت اللاتينية لغة المتعلمين ولكن الادب الشعبي باللغة العامية كان يواتم ويُشبع ما يجول في صدور الفلاحين . شعور روحي

« كان القرن السادس عشر عصر النكبة التي أصيبت بها هنغاريا على يد الشاميين الذين احتلوا

ثلثي البلاد وحكومها نحو ترنين . أما في الغرب فكانت حرب الاصلاح الديني قائمة فامتدَّ أثرها الى المجاريين فانقسموا بتأثيرها فريقين متعادين . فلا عجب ان تصمت ربات الفنون في هذه العصور المظلمة التي طغى فيها صليل السيوف على النشاط الروحي المحض . وكانت اللغة اللاتينية اللغة الرسمية ولذلك تملكات ورآءها اللغة المجارية لا تجري إلاَّ على ألسنة الفلاحين

فابعاث الآداب والفنون المجارية في اواخر القرن الثامن عشر يحمل على الدهشة والاعجاب وقد كان ابعاثها على أيدي رجال حرس الفرسان الامبراطوري — ومعظمهم من النبلاء — الذين ادركوا الحاجة الملحة الى احياء اللغة المجارية وتجديد آدابها. فشرعوا ينشئون المسرحيات والقصص باللغة المجارية فأقبل عليها الشعب وفي روحه دبيب الشعور القومي المنبعث. وكانت هذه المؤلفات متأثرة على الغالب بالآداب الالمانية والفرنسية ولكنها كانت متسمة في الوقت نفسه بسمة مجارية . وبلغ بعض هؤلاء الكتاب مرتبة الشهرة الادبية نذكر منهم كيشفالودي وبشناي ولا تزال آثارهما المسرحية والشعرية تطالع الى يومنا هذا

وشهد القرن التاسع عشر نهضة عظيمة غير مستظرة في جميع نواحي الحياة الروحية والعقلية . فقام اثريحثان المشهوران بوياي (كانا شقيقين) والطبيعي آيوش فكانوا رواداً في مجاهل العلم الحديث . وظهر كيس ويوشيفا وانوش فوضعوا قواعد القصة التاريخية المجارية ثم لمعت حتى أنقت وأزهرت على أسلة يوقاي . ونشأ فريق من الشعراء الشعبيين مثل جتوفاي وورو شماري وغاراي . بدأوا حياتهم الادبية متأثرين بالمدرسة الرومانسية في فرنسا والمانيا وانكلترا فتحولت اللغة المجارية المهملة الجافية على ايديهم وأيدي غيرهم لغة مناسبة للمقاطع قوية التعبير فاتصلت بأغوار النواعت الكامنة في حياة الشعب . كان الادب المجاري حتى ذلك الحين يستوحي موضوعات الآداب اليونانية والرومانية القديمة فتحوَّل الى البحث عن موضوعاته في طوايا التاريخ المجاري. وكانت أمواج الثورة الفرنسية قد وصلت الى ضفات الدانوب وانتشرت مبادىء المساواة والاخاء والحرية فأيقظت في صدور الشعب المجاري مواهبه الكامنة . كان النبلاء قبل ذلك يمثلون الأمة ولكن طبقات الشعب نبغت بعد ذلك وهي تشعر بكيانها وتتوق الى الاعراب بالادب عن ذات نفسها وما يخالجها من شعور وأمل . وما انتصف القرن التاسع عشر حتى كانت هذه الحركة الدمقراطية الأدبية قد نضجت وعندئذٍ وجدت روح العصر لساناً بليغاً يعرب عنها في شاعر مجاري قدر له أن يرتفع الى اعلى طبقة بين الشعراء الغانيين

ولد الكسندر بتوفي (Petöfi) من والدين فقيرين في سنة ١٨٢٣ . كان والده جزاراً ووالدته خادماً . لم يتلق من مبادىء العلم الاَّ أيسرها وكان انتظامه في المدارس الاولية متقطعاً لميله بالتجول في السهول . كانت روحه روحاً جامحة تتجافى القيد بالنظام فهجر حجرة

الدراسة باحثاً عن المجد اولاً في الخدمة العسكرية ثم على المسرح . ذلك انهُ وهو جندي عين الاقامة مع كتيبته في التما فأتيح له ان يتعلم اللغة الالمانية وأكبَّ بنفسه على درس اللغتين الفرنسية والانكليزية فأجادها بعض الاجادة . ولم يصب على المسرح نجاحاً يذكر بل كثيراً ما تعرض هو وفرقته في اثناء التجوُّل لاشدّ ألوان الخصاصة والفاقة . وجاءت عليهِ ايام كان يعاني فيها برد هنغاريا القارس وهو لا يملك ملابس تدفىء ظهره بل كثيراً ما كان يجوع ويبيت على الطوى. ولكن لا البرد ولا الجوع استطاعا ان يخمدا تلك الشعلة الداخلية المتقدة في صدره المتأججة كانها قوة من القوى الطبيعية ، ثم انطلقت في شعره الذهبي توقاً الى الحب والحرية. وبعث باشعاره الاولى الى المجلات لم تفز باقبال يذكر من الشعب ولكن سطورها ونبراتها كانت متسقة بروح العصر فلم تلبث حتى سرت مقاطعها على الالسن فحفظت ورددت بحماسة . وكان شعار اشعاره (عشق وحرية) وهما كلمتان تمثلان ، بأوفى ايجاز روح عصره

عشق وحرية ،
هذين أريد . . .
لعشقي أبذل حريتي ،
ولحريتي أبذل حياتي !

اطلقهُ نجاحهُ الادبي الاول من عقال همومهِ فدعي الى الاشتراك في مجلة ادبية فاصاب فيها دخلاً يسيراً مكنهُ من الصداح . فتوالت القصائد من قلمه وافرة العدد سائرة دائماً في طريق الاتقان والاجادة . كان ابن السهول الهنغارية الفسيحة فاستوحى حرارة شمسها وافقها الامتناهي ، فسكب ما خفق بهِ قلبهُ في حداثته في كلام سهل منساب ككلام الفلاَّح ، صادق كتغريد الطيور، متوقد نبيل كحسم البركان . لم يكن رائده في نظمه البحث عن قالب مصطنع من الكلام . ولم تكن الالفاظ في اشعاره الاَّ وسيلة متواضعة الى التعبير عما يختالهُ من شعور سام وفكر ملحّ . ومع ذلك فقد كانت اشعاره على الرغم من بساطتها مفرغة في اتم القوالب جمالاً فقد كان الكلام ينساب من بين شفتيه كالجدول المترقرق في الوادي، بل انا لنشعر بشذا ازاهير المروج في ابياته . ان هدوء الليل في القرى الهنغارية يهمس اسراره في آذاننا ، وهجير النهار المتوهج في السهل يلفحنا ونحن نقرأ سطوره . ها هي ذي الكلمات وقد تحوَّلت اناشيد ترفهُ في الهواء لقد هبَّ النسيم الرطب من القرية فتغلغل في الجو الخانق الذي يكتنف الشعر القديم فسا القلوب جميعاً بنفحة واحدة . كان طبعهُ جامحاً لا يقاوم وغنتهُ قوية تفرض على النفوس فما لبثت المدن القديمة حتى حدَّت من حريته فردَّ عليها فقال (للمقلدين)

هل تحسبون ان الشعر عربة تتخيرون لها الفجاج المسلوكة ؟
الشعر عقاب تطير حرة في اجواء لم يتخطها بعد احد !
الضعاف هم الذين يتساءلون في حين : اين الطريق ؟
فاذا دُلُّوا عليها هرولوا اليها كالكلاب الجائعة وراء العظام . . .

أيها الراغب ان تكتب ، خذ قلماً اذا آنست من نفسك القوة .
ثم تقدم الى حيث لم يتخط أحد . . .
وإلاَّ خذ محراثاً او قالب إسكاف
وألق من يدك عودك الحقير !

واجتذبهُ القلق السياسي في هنغاريا الى دردور النشاط الاجتماعي فغدا زعيم الشباب . غمس قلمهُ في موضوعي تحرير اوقاء الارض من البلاء والتنديد بالحكم الاجنبي وخط على القرطاس الفاظاً ثورية مزلزلة . وكتب قصيدة طويلة من نوع العلواء نادباً شوانها « الرسول » وصف فيها نضال الانسان في سبيل الحرية ثم أطلق في قصائده القصيرة سخريتهُ اللاذعة على البلاء المتراخين الاتانيين الذين نضب من صدورهم حب الوطن . فلما منع هذا النوع من الشعر لجأ الى المجاز كقصيدته « الأسد الحبيس »

أبدلوه من رحاب بلا حدود ، قفصاً صغيراً . . .
وبين أعواد من الحديد في القفص الصغير ، سجن الأسد ملك الصحارى !
دعه ينهض سلطاناً في غير سقف
فحرام ان تذله وهو من هو في جلاله .
غَصَبْتَه حريته ، فلا تمنعه ان يحلم بها . . .
أعْجَزْتَه ان يدرك ثمار الشجرة ، فاتركه يتفيأ في ظلها . . .
لم يزايله كبره حتى الآن
لقد سلبوه حريته ولونهُ ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسلبوه نظرات البطل يدير بها عينهُ !
لقد شردت أفكاره هنالك . فتخيل نفسهُ في آجامه ، حيث العواصف تدوي حوله ، والريح السموم تهب عليه !
يا لها من أيام طيبة ، وأرض عزيزة . . .
ولكن عالم تخيلاته انقطع ، لان حارس القفص وصل ، وسرعان ما هوى على رأسه بعصاه !
يا لله ! وعبد وعصا بحكمان !

ان الجمهور الغبي حول قفصه يحلق . . .
لقد اجترأ ان يضحك من الأسد !
يالله ! . . . كيف تجترىء بنات الارض ان تهمس !
لو حطم الاسد أعواد قفصه ، وخلى بينهُ وبين حريتهُ
لم يبق من أرواح هذه البنات بقية لجهم !

ولكنهُ لم يخش ان يزجر في قصائد اخرى يبدو فيها الشعور صافياً والقصد واضحاً لا يخطئها الظن كقوله « في نشيد الكلاب » و « نشيد الذئاب »

إذا غضبت العاصفة ، تحت السماء العاتمة . . .
وتساقط ابناء الشتاء التوائم : الثلج والمطر ،
فلا شأن لنا بها . . .
لنا في ركن المطبخ مكان ارقدنا فيهِ صاحبنا الكريم

نحن لا يشغلنا القوت . . . .
فانهُ اذا اكل صاحبنا وشبع ،
بقي على مائدته كثير من الفتات !

قد ينال السوط من اجسادنا حيناً
ولكن تمض الألم عن ظهورنا ونسترجع . . .
وسرعان ما يجذبنا صاحبنا اليهِ
فنلاطف في سرور أرجله الكرام !

* * *

إذا غضبت العاصفة ، تحت السماء العاتمة . . .
وتساقط أبناء الشتاء التوائم : الثلج والمطر ،
فلا منجاة لنا منها . . .
نحن في فيفاء مقفرة ، لا دغل فيها نلتجىء اليهِ !

الزمهرير في الخارج ، والجوع في الداخل : يضطهداننا ،
ولا يفتآن يشردانا في كل مذهب . . .
وهنالك على الثلج الأبيض ثالث ، هنالك السلاح
ينتظر ان يرى دماءنا الحمر !

نحن مقرورون جائعون حقًّا ،
وجنونا هدف للسلاح حقًّا
كل هذا أشقاه نصيبا ...
ولكن نحن أحرار !

في غمرة هذا النشاط كشاعر وزعيم وجد متسعاً من الوقت لأعمال ادبية اخرى فنقل آثاراً عتارة من الآداب الفرنسية والالمانية . والأمة الهنغارية مدينة له بترجمات نفيسة من شكسبير . ثم وقع — على رغم شهرته وحب البلاد له — في شرك الحب . هوذا فتاة حقيقية لا من نسج خياله ، يوجّه اليها ألحان قيثارته . انها جميلة من اصل نبيل وقد غدت قطب آماله ثم زوجه برغم معارضة والديها هذه السلسلة من قصائده تبدأ بقصيدة « ما الأمل »

امرأة بلا شرف . . .
تجاذب كل امرىء حبل المودة !
اذا انفقت عليها كنزك الانفس ! شابك
لم يبق لها في ودك أرب !

ثم تمضي هذه السلسلة في عدد لا يحصى من القصائد الثانية الجميلة مثل « كيف اسميك »

كيف أسميك ؟
إذا رفت عليَّ من عينك حمامة وديعة
ريشها من غصن الزيتون ، ولمسها ألعم من وسادة المهد !

كيف أسميك ؟
إذا رنَّ من صوتك لغم عذب
لو سمعتهُ الاشجار الجافة لأورقت غصوناً خضراء ظنًّا ان الربيع أتى لان البلبل يغني !

كيف أسميك ؟
وأنت الأم العزيزة لنبطني ؟
وأنت حورية خيالي الذاهب في السماء ؟
وأنت التي تتضاءل أمام حقيقتك المتلألئة آمالي الجريئة !

عزيزتي ، جميلتي ، زوجتي :
كيف اسميك !

وتنتمي الى قصيدة «الى زوجتي» المعدودة من أتم وأجل القصائد الغنائية في الآداب العالمية

مابرحت أزهار الحديقة تفتح في الوادي . . .
وما زالت الصفصافة تخضر أمام نافذتي . . .
ولكن أليس هنالك العالم الشتوي ، حيث ينشى الثلج قمة الجبل ؟
كذلك قلبي ، في شبابه يقوم الصيف بأشعته الحارة ، وفي آماله يتمثل الربيع المزدهر !
ولكن شعري الاسود قد وخطه المشيب ، وغشى رأسي جمد الشتاء !
أجلسي هنا ياحبيبتي ، هنا في حجري . . .
لقد أسندت الآن رأسك الى صدري ، فهل ترتمين غداً على ضريحي ؟
هل تضمين لو مت قبلك كفناً لرفاتي ؟
وهل يحملك عشق شاب على ان تتركي من أجله اسمي ؟ !
إذا بدت حجاب الارملة ، فاشنقيه الى شاهد تربتي ، ليكون علماً أسود
وسأرتفع اليه في جنح الليل ، أنقله الى لحدي . . .
لأمسح به دموع حسرتي ، اذ نسيت في سهولة من يذكرك !
ولأضمد به جراح قلب لا يزال في أي مكان وعلى الرغم من كل شيء يحمل لك الحب !

عنوان هذه القصيدة الاصلي «في آخر سبتمبر» . ها هي ذي الايام الاخيرة في سبتمبر تتوالى واشهر الشتاء الطويلة في ذيلها لا تزال الازهار متفتحة في الاودية ولكن الثلج بدأ يعم بين الحين والحين في تلبده انذار بموت الطبيعة . وبتوفى يشارك جميع البائرة في انهُ كان متسما بسمة البوهة فأحسَّ بكآبة الفاجعة المتوشحة لهُ في طيات الغيب . ورزق بغلام بعد انقضاء سنة على زواجه فتم بسعادة الحياة ولكن هذا النعيم تبدد بعد قليل عند ما نشبت الثورة في هنغاريا فكان لهُ فيها شأن عظيم شبيه باحدى قصائده المتأججة التي تليت على الجمهور المتحمس في شوارع بودابست ، فحملها الجمهور وعدا بها الى المطبعة وتصدَّر حروفها وطبعها بغير اذن المراقبة فكانت المنشور الهنغاري الاول الذي لم يصدر الاذن في طبعه

كانت هذه القصيدة الخطوة الاولى نحو تكبير الاعلان التي قيدت بها حرية هنغاريا . فشبت حرب الاستقلال . وانتظم بتوفى في الجيش فجمع في القتال بين السيف والقلم وكان البطال قشع ما بقي من غشاوة رقيقة على بصيرته فكتب قصيدة «تعبير حلم . . .»

قلت يا أماه ان الاحلام في بعض الليالي ، تصورها يد سرية قادرة . . .
وقلت : إن الحلم كوة تطل منها روحنا على المستقبل المغيب . . .
وقصصت عليك أني وجدت نفسي في المنام وقد نبتت لي أجنحة ، فطرت الى غير منتهى !

فأجبني يا أماه أني سأتمتع بأيامي ، وأن شمس حياتي لن تغرب ...
وقلت يا بنيَّ ، هذا تعبير رؤياك !
ذلك هو الشاب يشتد ساعده ، فيحتضن العود ...
وها هو ذا يبث العود اسرار نفسه ...
وتلك هي ألحان قلبه الرهيف ، تذهب كالطير في مختلف الاجواء ،
فتنزل من السماء صيتاً يتلألأ ،
ومن شعاعه يتألق على جبين الشاعر تاج !
ولكن حلاوة الألحان الساحرة تختزن السم في اعقابها ...
فكل لحن يهبهُ الشاعر عوده ، زهرة من ازهار قلبه
وما كل زهرة الا يوم من عمره لا يعود !
ذلك هو الشاعر على سرير موته ،
وهذه امهُ بجواره تهيم بالتوجع شفتاها ،
تهتف بالموت ألاَّ يغصب ابنها من بين ذراعيها ،
وتستنجز السماء وعدها ، أن يعيش طويلاً ولدها الحبيب ،
وتقول في حسرة : اوتكذب الاحلام ؟
ما كذبتك الاحلام يا أماه ،
فأسدلي عليَّ اكفاني ،
وأودعي الرفات مصيره المحتوم ...
اما ابنك فسيبقى اسمه حيًّا ،
حيًّا الى الأبد ...
هذا معنى تفسيرك يا امي رؤياي !

وهي قصيدة استوقفت نظر الشبان والشيوخ وحركت شعورهم . في هذه المرحلة المتأججة من حياته كانت ثيارتهُ قد شدَّت اوتارها الى أبعد حد فانطلقت منها اشعار الحب وأناشيد الوطنية عميقة متوهجة حتى لتكاد لا ترى لها مثيلاً في آداب امة ما.

كان في السادسة والعشرين في عمره قيًّا ممتلىء الاعطاف ولكنهُ كان يتوق الى الموت ، لا بدافع التعفن والانحلال بين الوسائد ، بل موتاً في الميدان دفاعاً عن الحرية . فأنشد « فكرٌ واحد يُعييني »

فكرٌ واحد ، تصوُّرهُ يُعييني ...
أن أموت على سريري بين الوسائد والحشايا ...

أن أذبل رويداً ، كالزهرة تتناهبها الحشرات ...
أن أتفانى بطيئاً كالشمعة اليتيمة في غرفة مهجورة ...
رباه ! لا تقدّر لي ميتة كتلك !
أريد أن أكون شجرة : تحرقها الصاعقة ، أو تستأصلها العاصفة ...
أريد ان اكون صخرة : يحدرها من الجبل الى الوادي رعدٌ صخّاب ...
حيثما تئن الشعوب في اصفادها ، وتضيق بنيرها ...
فتخرج بأعلامها الحمر ، شعارها : حرية العالم ...
ثم لا تلبث ان يتازلها الظلم بحديده وناره ،
هنالك فلامت أنا في حومة الوغى ،
هنالك فلفصل مهجتي فوارة حرّى !
فاذا بثت شتاتي بأخريات كلامي في غبطة ،
فلتذهب بين ضجة البوق ، وقعقعة السيف ، ودويّ المدفع ...
واذا تهاويت على الارض جثة فاقدة الحراك ،
فلتدسني سنابك الخيل في عدوها الى النجاح المظفر ...
ويوم تجمعون رفاتي المحطم ،
وتحتشدون لدفن بقايا عظامي ،
وتسيرونني وسط الموسيقى الوئيدة ، تحت الرايات السود
أودعوني أجداث الذين راحوا شهداء الحرية المقدسة !

وقد تحقق ما اراد رتقل في اواخر ايام يوليو ١٨٤٩ في سهل شجشوار حيث التقى جيش هنغاري صغير بقوة روسية ساحقة . مات استقلال هنغاريا يموت بتوفي ، فدفن « لا قبر ولا وطن » مع سائر القتلى في مقبرة عمومية . ولكن الشعب الهنغاري لم يصدق ان حريته خنقت وان شاعرها مات . فنسجت الأوهام أساطير حول اسمه وغدا الغوريون يتهامسون بأنهُ لم يمت ، وانهُ اسير في سجن روسي وانهُ لا بد عائد مع ربيع الحرية القادم . وفي سنة ١٨٦٧ تمّ الوفاق بين النمسا وهنغاريا فتحققت آمال الشاعر فاستردّت هنغاريا حريتها وانقذت من الحكم الاجنبي . لم يشهد بتوفي سعادة امته ولكنه لم يرَ كذلك مأساة زوجه وولده . اذ تحقق ما رآه بعين الخيال — في قصيدة « الى زوجتي » — عند ما تزوجت زوجته من آخر بعيد مصرعه ومات ابنه في حداثته

كان بتوفي شهاباً في سماء الادب صعد من الحضيض الى الاوج ثم اختفى في الظلام ولكن آثاره باقية معنا بين ايجاد العبقرية الانسانية